

## ابتهال

شعر: راضي صدوق\*

أسيرُ على النَّجوى سعيَداً بِحَيْرَتِي  
يُضَوِّى أَعْمَاقِي، وَيَقْشَعُ ظُلْمَتِي..  
وَأَيَّانَ يُرْسِي زُورِي بَعْدَ رَحْلَتِي  
إِلَى عَالَمِ الْأَسْرَارِ يَدْفَعُ خَطْوَتِي..  
وَيُخْصِبُ وَجْدَانِي وَيُطْفِئُ غُلَّتِي  
أَطْوَفُ فِي آفَاقِهَا دُونَ غَايَةٍ..  
فَقَدْ بَرِئْتُ رُوحِي وَغَادَرْتُ لَذَّتِي  
تُسَخَّرُ أَحْلَامِي وَتَأْسُرُ مُهْجَتِي  
وَلَا أَنَا بِالظَّلَامِي إِذَا بَعَثَ شُرْبَتِي  
وَيَعْنُو لَوَجْهِ اللَّهِ قَلْبِي وَجَبْهَتِي  
وَنُورُ كِتَابِ اللَّهِ زَادِي وَبُلْغَتِي  
فَأَنْتَ مَلَاذِي مِنْ ضِيَاعِي وَوَحْشَتِي  
وَكُنْتَ لِرُوحِي مُنْقِذاً مِنْ ضَلَالَتِي..  
وَأَنْتَ دَعَائِي فِي رُقَادِي وَصَحْوَتِي  
سِوَى الْعَفْوِ وَالْغَفْرَانِ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ  
وَأَنْتَ الَّذِي كَحَلَّتْ بِالنُّورِ مُقْلَتِي؟!  
وَطَوَّقْتَنِي بِالْفَضْلِ مِنْ كُلِّ نِعْمَةٍ

ذَهَلْتُ وَذَكَّرُ اللَّهَ زَادِي وَمُنْعَتِي  
وَأَشْعُرُ أَنَّ النُّورَ طَيَّ جَوَانِحِي  
وَأَرْحُلُ، لَا أُدْرِي إِلَى أَيِّ غَايَةٍ  
أَحْسُ بِشَوْقٍ لَاهِبٍ فِي أَضْوَإِي  
وَيَمْلَأُ أَعْمَاقِي بِفَيْضٍ يَقِينِهِ  
كَأَنِّي عَلَى الدُّنْيَا خِيَالٌ مُشَرَّدٌ  
وَلَيْسَ بِرُوحِي رَغْبَةٌ فِي لَذَاذَةٍ  
وَلَيْسَ بِقَلْبِي أَيُّ شَوْقٍ لِعَادَةٍ  
فَمَا أَنَا بِالطَّائِي إِذَا عَفَتْ زَادَهَا  
أُهْنِمُ بِاسْمِ اللَّهِ صَبْحاً وَمَغْرِباً  
هُوَ اللَّهُ يَسْقِينِي، هُوَ اللَّهُ مُطْعِمِي  
تَبَارَكْتَ رَبِّي بَارِئُ الْخَلْقِ وَالْوَرَى  
إِذَا ضَلَّ خَطْوِي كُنْتَ لِي النُّورَ وَالْهُدَى  
فَأَنْتَ ضِيَاءُ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ وَالنُّهَى  
أُحِبُّكَ حُبَّ الرُّوحِ مِنْ غَيْرِ غَايَةٍ  
وَكَيْفَ يَضِلُّ الْقَلْبُ يَا مُنْشِئَ الْوَرَى  
وَأَعْطَيْتَنِي مَعْنَى وَلَوْناً وَغَايَةً..

(\*) أديب وشاعر فلسطيني، من مؤلفاته: ديوان الشعر العربي في القرن العشرين، وله ست مجموعات شعرية.

وَرَوَيْتَ قَلْبِي مِنْ رَحِيْقِ الْمَجْبُوهِ  
 غَدَا فِي ظِلَامِ الْعُمْرِ نَوْرِي وَشَمْعَتِي  
 ذَهَلْتُ عَنْ الدُّنْيَا وَغَادَرْتُ طِينَتِي  
 أَصْلِي لَكَ الْإِيَّامَ يَا ذَا الْجَلَالَةِ  
 وَشُدَّ جَنَاحِي فِي طَرِيقِي وَخَطُوتِي  
 أَعِيشُ وَلَا يَدْرِي أَنَيْسُ بَعِيشَتِي  
 وَقَلْبِي عَلَى كَفِّي، وَرُوحِي بِرَاحَتِي..  
 كَمَا يُنْكَرُ الْأَعْمَى شُمُوسَ الْمَجَرَّةِ  
 وَأَمْنَحُهُمْ شَعْرِي وَعَظْمِي وَبَسْمَتِي  
 وَأَجْزِيهِ مِنْ قَلْبِي بِفَيْضِ سَمَاحَتِي  
 وَمَا زِلْتُ عُنوانَ الصِّفَا فِي شَيْبَتِي  
 وَأَصْبَحَ كَالْقَنْدِيلِ بَيْنَ طَوَيْتِي  
 وَأَضْحَى كَرُوحٍ مِنْ ضِيَاءِ وَرَحْمَةٍ  
 وَأَلْتَمُ أَحْزَانَ الْوَرَى فِي وَدَاعَةٍ..  
 تُطَهِّرُ لَيْلَ الْحَقْدِ مِنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ  
 وَأَمْسَحُ دَمْعَ الْحُزْنِ عَنْ كُلِّ وَجْنَةٍ  
 بَلَا أَيَّ مَنْ فِي عَطَاءٍ وَنَجْدَةٍ  
 شَمَالِي فِي الْمَعْرُوفِ أَوْ فِي الْمُرُوءَةِ  
 وَمَاذَا أَرْجِي وَهِيَ دَرْبُ النِّهَايَةِ!؟

وَأَلْهَمْتَنِي دَرْبِي إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى  
 فَلَا حَبَّ فِي قَلْبِي سِوَى حُبِّكَ الَّذِي  
 حَنَانُكَ إِنِّي فِي رَحَابِكَ وَاجِدٌ..  
 وَصَرْتُ دَعَاءَ مُرْسَلٍ فِي طَهَارَةٍ  
 فَجُدْ لِي بِخَيْرٍ مِنْ نَوَالِكَ مُنْعِمٍ  
 لَقَدْ كُنْتُ فِي الدُّنْيَا نَشِيداً مُضِيْعاً  
 أَغْنِي بَقْلِبِ طَاهِرٍ فِي بَرَاءَةٍ  
 وَيُنْكَرُنِي دَهْرِي وَيُنْكَرُنِي الْوَرَى  
 وَأَمْنَحُهُمْ وَدِّي رَحِيقاً مُسَلْسَلاً  
 وَأَصْرَفُ عَنْ لَوْمِ الْحَقُودِ نَوَاطِرِي  
 شَرِبْتُ كُؤُوسَ الصِّفْوِ طِفْلاً وَيَافِعاً  
 تَعَتَّقَ قَلْبِي بِالسَّنَا مِنْذُ مَوْلَدِي  
 هَفَا فِي ضَمِيرِي كَالضِيَاءِ مُهَوِّماً  
 أَعَانَقْتُ هَذَا الْكُؤْنَ بِالْحَبِّ وَالتَّقَى  
 حَيَاتِي إِيَّانُ وَرُوحِي شَمْعَةٌ  
 أَوَاسِي جَرَاحَ النَّاسِ وَالتَّغْرُبَ بِاسْمِ  
 لَقَدْ عَشْتُ عَطِراً يَنْفَعُ الْحَبَّ وَالشَّدَى  
 وَتُنْكَرُ يُمْنَايَ الصَّنِيعَ إِذَا سَخَتْ  
 فَمَا لِي فِي هَذَا الدُّنْيَا أَيُّ مَطْمَعٍ

# خاطرة أدبية حول الهجرة

د / محمد الحسين أبو سم \*

**خرج** محمد ﷺ من مكة جازعاً يترقب، يُخفيه الليل، ويختفي في النهار، تُغيبه الأودية، وتُظهره الجبال والتلال، يتوارى بظل الله وَيَسْتَرِزْ وَمَنْ يَضُمُّ ظِلَّ اللَّهِ لَا يُضَامُ، خرج من أحب بلاد الله إليه، مقرر أول بيت وُضِعَ للناس، مسقط رأسه، مهد طفولته وشبابه، بل تُرَابُ آبَائِهِ وأجداده، مكة المكرمة التي لم يستجب معظم أهلها -آنذاك- لدعوته، وإننا ناصبوه العداء، ووجهوا إليه السباب والشتائم؛ لأنه دعاهم إلى ترك ما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم من معتقدات، وتبذ ما ألفوه في بيئاتهم من تقاليد وعادات، فصبر واحتمل.

واختار الأذى ورؤية جانيه غداً تضيء به الأجسام

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

خرج محمد ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة حاملاً معه رسالة ربه إلى قوم استقبلوه استقبال الأمم الرؤوم لوليدها الرضيع، فكانوا يفدون به بالأرواح، ويحرصون على استيعاب رسالته وتبليغها، والدؤدؤ عنها، حرصهم على حقائقهم أو أشد.

وسرعان ما كفَّ إنسان المدينة المنورة عن ذلك كله، لا سيما بعد أن تدبر قول الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

قبل خمسة عشر قرناً هاجر المصطفى ﷺ إلى المدينة المنورة. ليرسي دعائم التوحيد، وليبني المجتمع المثالي في المدينة المنورة، بل ليغيّر وجه التاريخ، فحقق الله على يديه كل ذلك، بل إن جميع الحوادث التاريخية المهمة، وكل التغيرات التي طرأت على تلك البيئة وما جاورها -بعد الهجرة- إنما هي نتائج لتلك الهجرة، ترتبط بها ارتباطاً المسبب بالسبب.

بهذا المنهج الرباني المعتمد على جعل الإيمان هو القاعدة الأولى في بناء المجتمعات استطاع محمد ﷺ -بُعَيْدَ هِجْرَتِهِ- أن يُحدث تغييراً جذرياً في أوضاع الأسر والقبائل هناك، حيث نقلها من الدائرة البدائية الضيقة إلى دائرة الإنسانية الخالصة، وأبعدّها عن التقيد والارتباط بالرباط المادي وحده إلى رباط المبادئ والهداية الربانية، وقد سجّل القرآن الكريم هذا التغيير، وهذا التحول الكبير في تاريخ الأمة حيث قال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

هاجر محمد ﷺ فأنشأ مجتمَعَ المدينة المنورة، ذلك المجتمع الذي كانت سِمَتُهُ الباردة الإيمان بالله، إيماناً يقضي على انحراف الإنسان في مجالات الاعتقاد والفكر والعمل، فالإنسان في المدينة المنورة -قبل الهداية الإلهية له- ما كان يلتزم في معتقده بمعبود واحد، ولكن كان يتنقل من معبود إلى معبود، حَجَرٍ أو مَدَرٍ، شَجَرٍ أو ثمر، وما كان الإنسان في المدينة المنورة -قبل الهجرة يلتزم في تفكيره بمنطق واحد، إنما كان يُطَوِّع منطقاً للغرض والهوى فيغيّر على أخيه إذا لم يجد إلا أخاه:

لقد آخى النبي ﷺ بين الذين استقبلوه في المدينة المنورة  
فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ، هَاتِفِينَ قَائِلِينَ:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثِيَابِ الْوَدَاعِ

وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهُ دَاغِ

آخِي بَيْنَ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، ثم بينهم وبين مَنْ رَافَقُوهُ في هِجْرَتِهِ، فكان هؤلاء الْمُسْتَقْبِلُونَ وأولئك المهاجرون هم النواة الأولى

(\*) ناقد وأديب سوداني، يعمل أستاذاً في جامعة أم القرى، من مؤلفاته: القصة في الأدب العربي، ظاهرة التأثير والتأثير في الأدب العربي القديم.

## الهجرة نقلت الأسر والقبائل العربية من الدائرة البدائية الضيقة إلى الأفق الإنساني الأرحب

محمد ﷺ لم يهاجر إلا بتوجيه من ربه الذي يعلم السر وأخفى، وفات على هذا الحاقد الشانيء أن محمداً ﷺ قد ضرب بهجرة المثل الأعلى على أن حياة المرء إنما هي حياة رسالته، ولا فرار ولا خوف، وكيف يخاف من تكفل الله بحفظه ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (١) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٢).

هجرة المصطفى ﷺ لم تكن فراراً من الأذى، ولا خوفاً من الموت في سبيل الله، ولكنها إيمان والتزام بتوجيهات الله جلّ وعلا، إيمان يملأ نفس صاحبه عزّة وكرامة، ويأبى عليه أن يتخلد إلى السكون، أو يرضى بالخنوع، ولكن يحمله على التصرف وفق توجيهات السماء، بالهجرة أو غيرها، من أجل إقامة الدين، وإعمار الكون، وإسعاد الإنسان.

فلنرجع البصر كرتين في هجرة المصطفى ﷺ لنرى ماذا كسب فيها؟ وماذا كسبت البشرية بكسبه فيها؟ ألم يعد إلى مكة فاتحاً متصراً؟ ألم تخرج جحافل المؤمنين بدعوته لتطهر العالم من أرجاس الوثنية وأوصار الانحطاط؟ ألم ينشأ - بفضل الله - بعيد هجرته مجتمع أعيا الفلاسفة والمفكرين تصويرة بلة تحقيقه؟ أين جمهورية أفلاطون؟ وأين (يوتوبيا) مور؟ بل أين مدينة الفارابي الفاضلة؟!! هيهات هيهات، وإن من الواقع لأعجب من الخيال!! وإن من التاريخ لأغرب من نسج الأقاصيص!!! ألم تندح دائرة نور المدينة المنورة - بعد الهجرة - لتضيء للعالم وتهديه بهدي المصطفى ﷺ؟ ألسنا نتبع ظلال الدوحة الوارفة التي أنبتتها هجرة المصطفى ﷺ؟ لنرجع البصر كرة أخرى في هجرة محمد ﷺ ونرى ماذا كسب فيها؟ وماذا كسبت البشرية بكسبه فيها؟ عند ذاك نقول لجميع الشائين الحاقدين: ما أتمتم بمستطيعين أن تطاولوا محمداً ﷺ، وتردّد مع الشاعر قوله:

للمجتمع الإسلامي الفاضل الكريم، والذي سار في طريق الحضارة قدماً؛ لينبني مجتمع بغداد، ودمشق، والقاهرة، وقربطبة، وبخارى، وسمرقند، وليغذي بناء الحضارة الإنسانية بثمرات عقول الصفوة المختارة من علماء الحضارة الإسلامية، ولينبني مجتمع الأندلس العلمي الذي أصبح مشعلاً أضاء ديجور أوربا، بل كان عاملاً مساعداً في النهضة الأوروبية التي ساعدت بفضل الله في جعل الحياة هيئة يسيرة، لا تكلف الإنسان نصباً أو وصباً، وما نحن اليوم نجني ثمرات تلك النهضة، بل عشنا زماناً نعشو إلى أضواء الناس ولم نكن ندري أن الزيت الذي في قناديلهم هو زيتنا، فهل آن لنا أن نستغل زيتنا لتستغل ذاتيتنا، وهل آن لنا أن نقول لناشري حضارة العصر الحديث: هذه بضاعتنا ردت إلينا، بعد أن شوّهت وحرقت حيناً، وبعد أن شدّبت وهذبت حيناً آخر؟ هل آن لنا أن نقول ذلك لا بدافع التفاخر الذي جعل الشاعر يقول:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا جريء المجمع

ولكن عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وأملأ في أن نعيد ما شوّه وحرّف من حضارتنا إلى سيرته الأولى، ورجاء في أن نضيف إليها إضافات جديدة، تكفل لها مقومات الثراء والبقاء المستمدة من دروس هجرة المصطفى ﷺ التي كانت من أهم الأحداث الزمنية التي لا ينسيتها توالي الأجيال ولا مرور الحقب والقرون، فهي ماثلة في القلوب، شاخصة في الأذهان، ما دام قلب ينبض بالإيمان، ولسان يلهج بالصلاة والسلام على النبي الأمي والرحمة المسداة للإنسانية جمعاء.

وقد يقول - عندئذ - شانيء حاقد: علام التحدث أو الافتخار بعمل اعتمد على الهرب والفرار، الذي هو خزي وعار!! وهو يعني بهذا القول أن محمداً ﷺ كان خائفاً قليل الاحتمال، فلجأ إلى الفرار من مكة لما اشتدت عليه قريش، وهمت بالقضاء عليه!! ولو صبر واحتمل لآمن المكيون واهتدوا بهديه أو استشهد في سبيل رسالته.

قد يقول هذا شانيء، أو حاقد، متعصب، ولكنه في أحواله كلها جاهل الجهل كله، كليل العقل الكلال كله، مزجي البضاعة في التاريخ وسنن الاجتماع، لقد فات على هذا الحاقد الشانيء أن